مؤسساتنا التعليمية في زمن الاضطراب: إلى أين نحن ذاهبون؟

تعليم زد وألفا (Z & ALPHA)

إعداد

أ.د/ ثروت عبد الحميد عبد الحافظ عيسى

أستاذ ورئيس قسم الإدارة والتخطيط والدراسات المقارنة،

كلية التربية بالقاهرة - جامعة الأزهر

مؤسساتنا التعليمية في زمن الاضطراب: إلى أين نحن ذاهبون؟
تعليم زد وألفا (Z & ALPHA)

إن الحديث عن مستقبل التعليم الآن يمكن أن ينشئ بسهولة مستنقعًا من التصريحات والأطروحات والخداع الذاتي. وشيئًا فشيئًا، أصبحت كلمات مثل: "إعادة تصور" أو "إعادة تعريف" أو "إعادة اختراع" أو "إعادة توجيه" التعليم والتعلم جزءًا من مفرداتنا الأكاديمية الشائعة. إلا أنها من المؤكد تعبر عن درجة كبيرة من عدم الارتياح، ومع ذلك فهناك بالتأكيد ما هو على المحك أكثر من استخدام الاستعارات الرنانة لكشف الافتراضات الأساسية للتغيير. إن ممارسة إعادة وضع التعليم والتعلم أو حتى تغيير "نماذجه" تجبرنا على معالجة "طبيعتها" بأمانة، وتمثل تقدمًا مهمًا لا يمكن تجاهله أو رفضه بسهولة.

لذا ننوه إلى أن الغرض من المقال ليس تقديم إجابات مؤكدة أو أطروحات محددة، على الأقل في الوقت الراهن، فسيناريوهات المستقبل قد تقل أو تكثر، والطرح قد يطول أو يقصر، إلا أن المؤكد هو (أننا ذاهبون إلى وضع طبيعي غير مألوف)، وهو عكس ما نفكر فيه الآن، وشاهد القول: إنه بالرغم من توافر العديد من السياسات والخطط المستقبلية للتعليم على المستوى العالمي، إلا أن عظماء السياسة التعليمية ومن تصوروا ملامح تعليم هذا القرن لم يتوقعوا أن يحدث هذا الاضطراب العالمي من مجرد فيروس، ومع ذلك أصبح أكثر ما يقلقنا الآن هو الإجابة عن سؤال: متى نعود إلى الوضع الطبيعي؟ متناسين أنه يمكن أن تأتي الأفكار العظيمة والتعلم الرائع من الهزات الكبرى؛ لذا فالهدف الرئيس للمقال هو توفير إضاءة على طريق أي تصور مستقبلي لوضع مؤسساتنا التعليمية، وهذه الإضاءة ذاتها مرتكزة أيضا على تَذَكُر "مَعلمات" استشرافية لحكماء وعلماء إدارة قد تحدد مستقبليات خطانا، وترتكز على ماض وحاضر واضح ومحدد

يقول: الحكيم اليوناني" Socrates تأتي الحكمة الحقيقية لكل واحد منا عندما ندرك مدى ضآلة فهمنا للحياة وأنفسنا والعالم من حولنا"، وعبر بنحو مختلف الاقتصادي وعالم الإدارة "النمساوي الأصل Peter Drucker عندما قال: "الشيء الوحيد الذي نعرفه عن المستقبل هو أنه سيكون مختلفاً ."

كما كتب المفكر والمستقبلي الأمريكي Alvin Toffler ذات مرة: "لن يكون الأميون في القرن الحادي والعشرين أولئك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة، بل أولئك الذين لا يستطيعون التعلم، والتخلص من التعلم وإعادة التعلم ".

ويتحدث في الوقت الراهن البريطاني Sir Ken Robinson والمعروف بخدماته في مجال التعليم: قائلا: إنه بينما يتطلع العالم إلى المستقبل وإلى طرق العودة بأمان إلى الوضع الطبيعي، لدينا فرصة فريدة لإعادة ضبط أولوياتنا وإعادة تحديد شكل هذا الطبيعي، ولكن علينا أن ننظر ما هو نوع الوضع الطبيعي الذي نريد العودة إليه، وهل هو الطبيعي الذي تركناه وراءنا؟ إنه يعتقد أنه لا ينبغي أن يكون الأمر كذلك، وأننا في لحظة استثنائية، وفي الوقت المناسب لإعادة توجيه مسارنا، وفرصة لإلقاء نظرة فاحصة على جوانب أنظمة التعليم التي أخذناها كمسلمات لفترات طويلة جدًا.

ويطرح Hans d'Orvill المدير العام المساعد السابق لليونسكو ومتخصص التخطيط الاستراتيجي، سؤالًا مشابهًا: كيف يجب أن يبدو الوضع الطبيعي الجديد للأجيال القادمة؟ كيف يمكن للبلدان استخدام الابتكار في فترة التعافي لإعادة البناء بشكل أفضل؟

لعلنا نستقرئ من السطور أعلاه مجموعة من المَعلمات الموجهة لأي طرح أو سيناريو لمستقبل مؤسساتنا التعليمية، من ذلك:

- أن المؤسسات التعليمية بحاجة ماسة وعاجلة إلى إعادة نظر جذرية في مبرر وجودها بداية، ومدى فعالية تصميماتها التنظيمية بشكلها الحالي نهاية.
- أن المعلمين العظماء هم متعلمون دائما.
- أن التغيير هو الحقيقة الوحيدة الثابتة.
- أن الوضع الطبيعي المستقبلي لن يكون هو الوضع الطبيعي الذي نفكر فيه أو نريده حاليًا.
- أن التفكير المستقبلي لابد وأن يكون ثقافة وأسلوب حياة، ليس فقط لعدد قليل من المبتكرين ولكن للجميع، بما في ذلك الطلاب والمعلمين والمواطنين العاديين.
- أن التعلم وإلغاء التعلم وإعادة التعلم هو المفتاح الرئيس للبقاء على صلة بالحياة آنيًا ومستقبليًا.

وهنا علينا أن نسأل أنفسنا في أطروحاتنا واستشرافاتنا لمستقبل مؤسساتنا التعليمية، هل فعلا يمكننا أن نفكر بطرق غير تقليدية، هل فعلا تتناسب تصميمات نظمنا التعليمية وطرائق تعليمنا- على حد تقسيم علماء الديموغرافيا- مع

جيلي: (زد وألفا Education of Generation Z & Alpha (وهما: جيلان محترفان تكنولوجيا، ونشآ في عالم معولم حقًا، وتشكل لهما وسائل التواصل الاجتماعي أسلوب حياة، بل ووفقًا لتقرير Dell Technologies أن 85 ٪ من الوظائف في عام 2030 التي سيدخل فيها جيل (Z & Alpha)لم يتم اختراعها بعد، كما يذهب تقرير المنتدى الاقتصادي العالمي إلى أن 65 ٪ من أطفال المدارس الابتدائية اليوم سيعملون في أنواع وظيفية غير موجودة بعد.

ولحسن الطالع، أن المعلمين اليوم حول العالم يتحدثون عن الحاجة إلى إعادة التفكير في كيفية تعليم الأجيال القادمة. قد يكون هذا هو مجرد الاضطراب الذي يحتاجه قطاع التعليم لدفعنا جميعًا نحو إعادة التفكير في كيفية تعليمنا، والتساؤل عما نحتاج إلى تدريسه؟ وما الذي نعد أبناءنا له؟ لذلك بينما يجاهد المعلمون في التعامل مع الطرق الجديدة للتواصل مع الطلاب بعيدًا عن الفصول الدراسية وقاعات المحاضرات، علينا أن نرافقهم وبالتوازي بتفكير في كيف يمكن أن تساعدنا هذه الأزمة المزعجة في تحديد الشكل الذي يجب أن يبدو عليه التعليم لجيلي(Z & Alpha) :وما وراءهما.

ومن قبيل ماله صلة بأجيال (المستقبل) يمكننا أن نتساءل وبشكل غير مألوف:

- لماذا لا نفكر في استغلال المباني التعليمية، لمراحل تعليمية مختلفة في أيام مختلفة أو في اليوم الواحد؟ وما له صلة: لماذا نصر على مسلمة " قضاء المزيد من الوقت في التعلم يعني دائمًا نتائج أفضل"؟
- هل يمكننا التفكير في فوائد إنشاء مراكز تعليم في الكيمياء أو الفيزياء أو التكنولوجيا مثلا؟ بدلًا من توقع أن توفر كل مؤسسة تعليمية مختبراتها الخاصة.
- هل يمكننا رؤية مراكز/ شبكات تعليم عن بعد، منوط بها مهام محددة، وتعمل تحت إشراف ورقابة الجهات المعنية، وتتولى (مقررات محددة/ مرحلة تعليمية/ مجموعة مدارس...)، وبما يخفف من الأعباء الكثيرة التي تقع على كاهل الدولة.
- لماذا نعلم طلابنا في مجموعات تعاونية ثم نختبر كل فرد على حدة؟ هل يمكن أن نجرب العكس؟
- هل يمكننا التفكير والبحث في كيف تقتل المدارس الإبداع، قبل التفكير في كيف ترعى المواهب؟.

- لماذا لا نعزز ثقافة الخطأ والتعلم من الخطأ كبديل لثقافة التفوق والتنديد بالخطأ؟ وهل يرتكز الإبداع المستدام على الثقافتين؟
- لماذا لا نعيد فحص مسلمة أن الفصول الأصغر تعني دائمًا نتائج أفضل؟ ما موقف التقنيات المعاصرة في هذه الحالة أو حقيقة أن المعلم الجيد يصنع الفارق؟
- لماذا لدينا افتراض أن الأطفال المتساوين في العمر متساوون في القدرات ويتم إلحاقهم في مراحل وفصول محددة؟ ماذا عن مبدأ الفروق الفردية؟ ألا يمكن أن تشكل الإجابة إعادة نظر في توزيعهم على المراحل والمدارس؟
- لماذا نصر على افتراض أن كل سؤال (اختبار) له إجابة واحدة؟
- لماذا نعظم من تقنيات الاتصال، ونرى في ساعة اليد – مثلا - شيئا مقدسًا، ولدينا جيل يرى انعدام قيمتها بل وأحيانا "تفاهتها"؟ ثم نصمم أننا بوضعنا الحالي قادرون على أن نعدهم ونؤهلهم للمستقبل؟
- كيف نقنع طفلا أن يحَسن خطه، مثلا، وهو يرى تقنية تمكنه من ذلك بأقل جهد ووقت وأكثر جودة؟
- لماذا نتجاهل أن نبصر مشهدا على النظام التعليمي أو بعض جوانبه (عليك إعادة تثبيت نظام تشغيل جهازك لأن الإصدار السابق أصبح قديمًا أو تالفًا)؟. أو تبني مقولة: (عليك الخروج من منطقة الراحة الخاصة بك واعتماد طرق جديدة لتبقى على صلة بالحياة).
- هل فكرنا في أن نجرب تغليب ثقافة التفكير في المستقبل على التخطيط للمستقبل؟

في المجمل: هل يمكننا أن نفكر ونستشرف - بشكل موضوعي- مبررات وجود الأنظمة التعليمية بهذا التصميم؟ هل تصلح لإعداد أجيال المستقبل؟ هل سيظل فقط هدفنا الاستراتيجي التقليدي من التعليم هو: تخريج أفراد مؤهلين لسوق العمل...؟ وما له صلة: هل فكرنا في أي عام سيتخرج طفل يلتحق بالمدرسة هذا العام؟ هل نستطيع فعليًا التحكم في إعداده لهذا العام بما هو قائم؟ هل سيعمل في وظيفة واحدة فقط؟

ومن ثم، ينبغي ألا تكون الأولوية في أطروحات مستقبل التعليم لكيفية العودة إلى الوضع الطبيعي بقدر ما تكون لترسيخ ثقافة تؤمن بالتغيير، والقفز الواعي فوق

المألوف، والتمعن في خصائص أجيال حالية ومستقبلية، وفوق هذا وذاك علينا أن نسأل ونُجيب: لماذا نعلم؟ ومن هذا الذي نعلمه؟ وإلى أي زمن نعلمه؟.

ختامًا: قد تدفعنا الإجابة عن مثل هذه التساؤلات إلى أن نغير من طرائق تعليمنا وتعلمنا، وننظر في تصميمات هياكل مؤسساتنا التعليمية ومواردها، ونفحص أدوارنا، ونتأمل طموحات أجيالنا، ونصف ونوصف أهدافنا. وبمعنى آخر، قد تدفعنا إلى أن ننقل ملكية تعليم المتعلم إلى المتعلم ذاته. ويكفي أن يكون المعلم مدربًا وموجهًا وميسرًا للتعلم، وهو ما قد يشكل مدخلًا لحل الكثير من مشكلاتنا.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل،،،

حفظ الله مصر قيادة وشعبا من كل سوء،،،

بقلم:

أ.د/ ثروت عبد الحميد عبد الحافظ
أستاذ ورئيس قسم الإدارة والتخطيط والدراسات المقارنة
كلية التربية بالقاهرة - جامعة الأزهر